

القلعة والقارب

اخيرا ليد زوجها تلمس رأسها . استدارت بوجهها اليه حائقة . رأته ظلا اسود ينحني فوقها . سانطق الان .. فعذار ان يبكي الطفل ! رأت ظهره ينحني وكفيه تطبقان على حزمة بعيدة من عيدان البردي وتسدانها بقوة ، وشعرت بالقارب ينطلق بهم من مكمنه كالسهم . انحسرت عنهم غابة البردي متراجعة بسرعة فأصبحوا في الهواء . بضعة عيدان من البردي تقف متباعدة ، وحيدة ، تميل مع التيار قرب الشاطئ .

عندما عبر الرجل من صدر القارب الى مؤخرته ، موازنا جذعه مع تارج القارب ، مارا من فوق كنف امراته - التي انحنت فوق الصغير لتتخاضى قدميه الخشنتين - شعر بالقارب يفقد قوة اندفاعه، ويبدأ بالتراجع مع تيار النهر التدفق . فاسرع يتناول المجذاف وراح يدفنه في الماء في ضربات حذرة ، متلاحقة ، مكثومة . وبرغم حذره كانت قطرات الماء المسافطة من كف المجذاف ، والمرطمة بصفحة النهر ، بين ضربة واخرى ، تفرقع في رأسه . الماء يتدفق في الاتجاه العاكس ويجعل تقدم القارب بطيئا . عينا امراته القابضة في قاع القارب امامه تلمعان في الظلام ، تحدقان في عينيه ، تحاسبان . ترى كم تكرهه الان هذه المرأة ؟ طفله نائم .. يبدو نائما . الطيور الليلية تتخاطف حولهم . تمرق فوق صفحة النهر لتختفي في غابات البردي على الشاطئ ، وكان مئات الايدي الخفية تتقاذف احجارا صغيرة سوداء من جرف الى اخر ، في معركة صامتة لا تنتهي . وجدار القلعة الاسود الشاهق الخفيف يكر في عينيه ، ويسد عليه الافق . ود لو يتوقف .. يترك التيار يحمله ويعود به .. لكن لا .. لبس الان ، فالقارب باتجاه القلعة تماما . القى نظرة سريعة على امراته . رآها تحتضن طفلها خائفة وعيناها تلمعان في الظلام .

لم تكن المرأة ترى القلعة من قبل . كانت تجلس وظهرها الى القلعة ، اما الان فالظل الاسود يزحف على الشاطئ الى جانبها ، فلم تستطع ان ترفع عينيه عنه ، فالظل يزحف في صمت وببطء شديد مرهق . خفق المجذاف المتكثوم وحده كان يمزق السكون . فوجئت بطائر صغير يخطف فوق رأسها فجعلت مذعورة ، ونهته الصغير فانسعت عينا الاب ذعرا وجمدت يداها على المجذاف وفتح في الظلام . اسكتيه ! اسرعت لتقم الصغير حلمة نديها مضطربة مرعوبة فسكن الطفل وعاود الاب الجذف يمزقه الفرع ، لكن الصغير لفظ حلمة الثدي مرة اخرى ونشج باكيا في قلب السكون . احرصه : اني احاول . اقطع نفسي حالا ! لا استطع . واشتعل ضوء في احدى الكوى في طرف القلعة . لقد ضمنا .. انظري ! وفي اللحظة التي حدثت فيها المرأة الى الفتحة

— لماذا نهرب ؟

— اشد شئ .. لا ترفعي صوتك .. يسمنا الحرس في

القلعة فتصيح !

سألته همسا :

— لماذا نهرب ؟ لماذا لا نبقى .. كالاخرين ؟

اجاب همسا في غضب !

— لانني لا اريد ان اموت .. كما يموت الاخرون .

★

القلعة سحابة داكنة تجثم على لسان من الارض يشق بطن النهر المتلوي العمق كخنجر كبير اسود . الرجل يقف في صدر القارب ينشبت بحزمة من اعواد البردي الطرية الطويلة ، وخشب القارب المشقق البارد يرتج باستمرار تحت قدميه المبلتين الحافيتين، فالتيار قوي ثقيل يكاد ينزع القارب من تحت قدميه وينهب به بعيدا صوب البحر . انصت الرجل بانتباه . يسمع هسيس سيقان البردي الكثيفة المشبعة بالماء وهي تقاوم تدفق التيار وتحتك بجانب القارب ، خفق اجنحة طيور ليلية وهي تعط بين عيدان البردي ، او تنطلق فجأة من مكان ما لتعبر النهر الى الطرف الاخر ، خرير الماء المتواصل ، نقيق الضفادع ، وشوشة الريح ، ازيز الهوام ، المهمة الليلية للاف المخلوقات الغريبة وهي تغادر جحورها ، او كازها ، سراديبها الترابية. وبقي مترددا .

المرأة تجلس في قاع القارب ، في غضب يائس ، تحتضن طفلها ، فهي تذهب معه بسبب الطفل . صغيرها ينام الان وشفثاه تطبقان على الحلمة . بين حين واخر تتحرك الشفتان ، ترضعان الثدي قليلا ثم تسكنان . وكوخز ابرة من نار شعرت بلسعة صغيرة في لحم نديها العاري . هصرت الحشرة باصابعها فوق اللحم ، نفثتها ، واسرعت تغطي صدرها ووجه الصغير بطرف فوطتها الشفافة السوداء . استيقظ الطفل فرأت بياض عينيه في الظلمة . افلت حلمة الثدي ودفع برأسه الى الوراء . لامس هواء الليل البارد حلمة نديها المبللة فسرت في جسدها رعشة برد ، واوشك الطفل ان يبكي فسارعت تضع كفها تحت رأسه المستدير الخفيف الشعر ، قربته من صدرها مرة اخرى فاطبق شفثيه الصغيرتين الناعمتين على الحلمة وراح يمتص في نهم . اخذت تحدق عبر الفوطة في بياض خده المتكور المتلوي وهو يتوسد صدرها آمنا . بقيت ساكنة ؟ توحدت معه عبر حليها الدافئ المنساب في اعماقه . كان يمتصها برفق فتدوب فيه حتى لتكاد تفوق . انتهت

المضادة في الطرف الفضي من القلعة شعرت بفراغ مهول يتاكل حصنها ، ويكف زوجها كخواب نسر ضخم ترتطم بوجهها وتطبق على فمها بقوة ، وأحسّت بصدرة يلهث فوقها مضطربا . ومن طرف عينها الفرعتين ، وهي تحاول التكاثر من قبضة يده المحكمة على فمها ، احت ذراعه الأخرى تتدلى خارج القارب .

الظلمة . لم يكتشفوه بعد .. لم يكتشفوه ، لكن الحلقة كانت تضيق شيئا فشيئا . ويأتيه صوت زوجته وهي تصرخ في هستيريا وسط دوامة الدوران الأبدى . لقد قتلته من أجل لا شيء . أخرسي لا يسمعك احد . ليسمعني العالم .. اقول لك لقد قتلت أبنتك من أجل لا شيء .. وسيقتضون عليك في النهاية !. انت تريدن موتي .. ساققتك ان لم نسكتي !. اقتلني اقتلني اقتلني كما قتلته ايها ال .. ويهوي المجذاف على رأسها بعنف ، فتسقط جثة الصغير من بين يديها . وترنح .. تحاول ان تقول شيئا ، تتماسك ، تتشبث بخشب القارب ، لكن الليل يطبق عليها ويحتويها فتسنسلم اليه منعبة .

ويتنهذ الرجل وهو يرى قرص الضوء يتراجع مبتعدا عن القارب ، يتقاذف فوق صفحة النهر ، يصطدم بالجرف ، يشعل عيدان البردي ، يتسلق جنوع الأشجار ، يضيء الأوراق ، وينتقل من رأس شجرة الى أخرى ، ثم لا يلبث ان ينطفيء تاركا وراءه ظلمة داكنة وسكونا عميقا .

يلتفت أمر الحرس في القلعة الى مساعده .
- الان .. !

ولاول مرة تسقط حزمة الاشعة على خشب القارب فتعريه تماما . تكشف جثة المرأة المتكورة باهمال في القاع ، ووجه الرجل المرتعب والمجذاف عاطل بين يديه المشلولتين . وعندما يتحرك الرجل ليقدف بنفسه الى النهر تنثال عليه زخة من الرصاص فيسقط المجذاف من بين يديه وينطفيء قرص الضوء في عينيه .

بفداد

- اطفئوا الاضواء .. اطفئوها !
نظفا الاضواء في غرفة المراقبة في القلعة .
- هل نطلق الرصاص الان ؟
- لا .
- هل تمنعه يقلت ؟
- لن يفلت فهو يجذف ضد التيار .
- وهل تنتظر شيئا ؟

- أريد ان امنحه شعورا بالطمانينة لبضع دقائق . لا تنس انه احرص طفله لكي لا نكتشف مكانه . انه يحتمي الان بظلام الليل وبصمت الطفل .

قال الرجل همسا وهو يلهث :
- انظري ! لقد انطفأ الضوء في القلعة .. كنا سنضيق ..
- نو لم ..
- ..
- لقد نجونا ..
- ..
- ماذا كنت .. استطع ان افعل ؟ اتركه يصرخ .. ليكتشفوا مكاننا ؟

- كان لا بد من اسكاته ..
العممة في النهر والعممة في قلبها تيار هادر من الفجعة .
- لا تحزني .. ما دمتا قد نجونا فسوف ننجب غيره .

ارادت ان تضحك ان تبكي ان تصرخ ان ترمي بنفسها الى النهر ، لكنها سمعت زوجها يشهق فزعا وعيناه متصلبتان في صفحة النهر ، ورات حزمة من الاشعة تشق الظلمة وتسقط قرصا عريضا من ضوء ساطع فوق سطح النهر على مسافة قصيرة من القارب . بقيت الدائرة المناجحة نابتة في مكانها على صفحة النهر بعض الوقت ، ثم ابتعدت تكس صفحة النهر باتجاه الشاطيء الاخر . اشتعل الجرف الاسود ، عيدان البردي الخضراء وجنوع الأشجار المشمقة الداكنة ، فانزل الرجل المجذاف الى النهر بسرعة وراح يجذف بقوة وخوف مدمر يتليس كل ذرة في جسده . القرص المشعل يضيء الشاطيء .. ينتقل من مكان الى اخر وكأنه يبحث عن شيء . القارب يتقدم مبتعدا عن القلعة ، والمرأة ترقب ما يجري حولها في حياء .. دون خوف .. دون رهبة . وينزل القرص الى الماء مرة اخرى فيشعل صفحة النهر عند الشاطيء ثم ينطلق فجأة في سرعة مجنونة باتجاه القارب تماما . فتتموت القبطستان على ذراع المجذاف ، وتناهب العيمان في هلع حزمة الاشعة في اندفاعها الجنوبي والقارب واجف بانظار سقوط الدائرة الملتهبة على خشب القارب . لكن قرص الضوء يقف فجأة على مسافة بضعة امتار من القارب ، يبقى مترددا لحظات لا يعرف أين يتجه ، ثم يحرف بهدوء لينزلق فوق صفحة النهر ويدور حول القارب في حلقة كبيرة . ماذا يفعل ؟ أين يتجه ؟ قرص الضوء في حركة دائمة ، كعقدة كبيرة في طرف حبل ضخم غير مرئي ، تشد القارب في مكانه وتمنعه من الانفلات . اصبح همه الان هو ان يبعد القارب عن خط الدائرة الملتهب . يداه تجذبان والقارب يدور ويدور ويدور في وسط الحلقة ، محتسبا في

روايات ومسرحيات مترجمة

من منشورات دار الآداب

الآن بيتون
نيكوس كازنترافي
البرتو مورافيا
البرتو مورافيا
غوستاف فلوير
موريس ويست
أريك سيفال
بيار دوشين
البيير كامو
ماريو بوزو
فاسكو براتوليني
هنري باربوس
لوركا
مارغريت دورا
جان بول سارتر
«
»
»
»
»

أبك يا بلدي الحبيب
زوربا
أنا وهو
الانتباه
مدام بوفاري
السمير
قصة حب
الموت حيا
الموت السعيد
العراق
الشوارع العارية
الجحيم
ماريانا
هيروشيما حبيبي
نساء طراودة
تمت اللعبة
مسرحيات سارتر
الفيشان
دروب الحرية ٣/١